

المحاضرة الرابعة: رواد علم الاجتماع

إيميل دوركايم: إذا كان علم الاجتماع عند دوركايم هم العلم الذي درس الظاهرة الاجتماعية (أو الواقعة)، فإن دوركايم يرى أن الفهم الدقيق لهذه الظاهرة لا يتم إلا بعد النظر إلى المجتمع في شقيه الأساسيين: القسم المورفولوجي، والقسم الفيزيولوجي. لذلك فقد قسم دوركايم علم الاجتماع إلى: المورفولوجيا الاجتماعية والفيزيولوجيا الاجتماعية.

المورفولوجيا الاجتماعية: اقترح دوركايم لفظ المورفولوجيا على ذلك الفرع الذي يهتم بدراسة تأثير البيئة المحيطة على الحياة الاجتماعية وأساليب تنظيم المجتمع.

والمقصود بالمورفولوجيا الاجتماعية عند دوركايم، هو توزيع الأشخاص والأشياء في المكان أو الفضاء المادي؛ أي دراسة المظهر المادي للمجتمع، بما فيه: الموقع الجغرافي، البيئة (حضرية كانت أم ريفية)، الطبيعة، الكثافة السكانية، المهجرة الداخلية والخارجية... وعلاقة كل ذلك بالتنظيم الاجتماعي.

وهي الدراسة الشكلية والمادية للمجتمعات بالتركز على وحدات المجتمع وأجزائه العددية والنوعية حسب توزيعها وترتيبها على المجتمع. لذلك، فإن المورفولوجيا الاجتماعية تقيم مقارنة كمية بين الأشخاص والأشياء، مهتمة بالعدد والنوع والحجم والكثافة والإمتداد والحركة الاجتماعية والملاحم الاجتماعية القابلة للعد والقياس.

الفيزيولوجيا الاجتماعية: أو علم الوظائف الاجتماعية. وتتضمن العمليات الديناميكية كالعقيدة والدين والأخلاق والقانون والإقتصاد... وتعنى بدراسة مختلف الوظائف التي تتم داخل البناء الاجتماعي والعمليات والممارسات الاجتماعية. وتركز الفيزيولوجيا على دراسة الأنشطة الاجتماعية نفسها في علاقتها وتكاملها ودورها في تحقيق الأهداف العليا للمجتمع.

وتركز الفيزيولوجيا على مظاهر الحياة الاجتماعية: المظهر الديني، المظهر الإقتصاد، المظهر السياسي، المظهر التربوي، المظهر الثقافي... رغبة في دراستها دراسة علمية متخصصة.

الظاهرة الاجتماعية عنده: حدد دوركايم مهمة علم الاجتماع في كتابه قواعد المنهج في دراسة الظواهر الاجتماعية (الوقائع / الحقائق الاجتماعية). والظاهرة الاجتماعية عنده هي: ضروب السلوك والتفكير الاجتماعيين، أشياء حقيقية توجد خارج ضمائر الأفراد الذين يجبرون على الخضوع لها في كل لحظة من لحظات حياتهم؛ حيث يجدها الفرد تامة التكوين منذ ولادته.

من هذا التعرف، أورد دوركايم خصائص الظاهرة الاجتماعية على النحو التالي:

العمومية: فهي موجودة في المجتمعات الإنسانية عامة (الطلاق، العنف، الانتحار) لكن بأشكال متنوعة.

الموضوعية/الخارجية: فهي تنشأ مستقلة عن الأفراد الذين أنتجوها، ولها قوانين خاصة تتحكم في تكوينها.

الظاهرة أسبق من الفرد، كونها ترتبط ببناء المجتمع، فالأفراد يولدون ويجدون الظواهر الاجتماعية سابقة عليهم.

القهرية (الجبر/الإلزام): يخضع لها الأفراد رغما عنهم، ولا يمكنهم الانفلات منها أو العيش بعيدا عنها.

كما يمكن أن تكون الظاهرة سوية (الزواج، التفوق الدراسي، عمق الروابط الاجتماعية)، أو غير سوية / منحرفة (الانتحار، السرقة، اختطاف الأطفال).

التلقائية: فهي لا تمتلك بداية فردية محددة، بل تنشأ نتاجاً لتفاعل الأفراد بعضهم مع بعض، ودون قصد منهم لإنتاجها.

الترابط: فالظواهر الاجتماعية ذات ارتباط وثيق بعضها ببعض، حيث لا يمكن أن ندرس ظاهرة اجتماعية بعزلها عن بقية الظواهر الموجودة في المجتمع، إذ غالباً ما تفسر الظاهرة الاجتماعية بظواهر أخرى، فانحراف الأحداث قد يفسر بطلاق الوالدين والفقر وضعف ميكانيزمات الرقابة وسلبية التنشئة الاجتماعية... وكلها ظواهر اجتماعية.

الجابذية: إذ يميل الأفراد غالباً للتصرف حسبما تمليه الظواهر الاجتماعية المتفشية في المجتمع، وذلك أن الفرد لا يلقي قبولا اجتماعيا في التصرف عكس ما يتصرف به المجتمع (عادات الزواج مثلا).

تقسيم العمل والتضامن الاجتماعي: يرى دوركايم أن العامل الأساسي في تطور المجتمعات يعود لظاهرة تقسيم العمل، ونظرا لزيادة نسبة تقسيم العمل تم التحول من الحياة البدائية إلى الحياة المدنية. واختلفت أشكال التضامن.

التضامن الآلي/ الميكانيكي: يسود هذا التضامن المجتمعات البسيطة، أين يكون التجانس/ التماثل بين الأفراد كبيرا، العلاقات الاجتماعية قوية ومتماسكة، العادات والتقاليد هي أقوى وسيلة للضبط الاجتماعي.

التضامن العضوي: يسود المجتمعات التي تعتمد على تقسيم العمل بطريقة متخصصة، فيكون التعاقد القانوني هو أساس العلاقات الاجتماعية.

الضمير الجمعي: هو كيان من العواطف والمعتقدات المشتركة بين أعضاء المجتمع، يتم تناقله من خلال عمليات التنشئة الاجتماعية.

يقول دوركايم في هذا الصدد: إذا تحدثنا أو تصرفنا فإن المجتمع هو الذي يتحدث فينا، للدلالة على أن المجتمع بكل معطياته الثقافية والاجتماعية والقيمية يعيش في ذوات أفراد، ويوجه سلوكياتهم .

الانتحار: جاءت دراسة دوركايم الإحصائية حول ظاهرة الانتحار لتكشف الحلل الذي تنامي في المجتمع جراء عدم تكيف الفرد مع مجتمعه، وانفلاته عن معايير وقيمه مجتمعه.

وبذلك فقد فسر دوركايم ظاهرة الانتحار باعتبارها ظاهرة مرضية في المجتمع تفسيرا نستدل به على وجود خلل في المجتمع، وبالتالي فهي حتى وإن كانت سلبية إلا أنها تفيد المعنى الإيجابي، حيث أنه كارتفاع الحرارة في الجسم مؤشر على عارض مرضي يوجه المجتمع لمعرفة مكنم الحل فيه.

أنواع الانتحار:

الانتحار الأناني: يحدث عندما ضعف الضمير الجمعي وارتفاع درجة الفردانية، فيفقد الفرد الأمل في الاستمرار بحياته بسبب فقدان الروابط الاجتماعية الناتجة عن التفكك الأسري أو السياسي أو الديني مثلاً.

الانتحار الغيري/ الإيثاري: يحدث حينما يكون الفرد منغمسا في المجتمع لدرجة أنه يشعر بواجب التضحية لأجله.

الانتحار القدري: يقع نتيجة الإفراط في التنظيم والرقابة، وهو منتشر أكثر في المجتمعات القمعية ما يفضل الفرد الموت على العيش.

الانتحار اللامعاري (الأنومي): يحدث حينما تضطرب ضوابط المجتمع يفقد ومعه الفرد معاييرها نتاجا للتغيرات المفاجئة التي قد تصيبه (الكساد أو الانتعاش الاقتصادي).

عموما، يرى دوركايم أن هناك علاقة عكسية بين التكامل الديني والأسري والسياسي للفرد وبين ميله للانتحار، ويظهر ذلك من خلال:

التكامل الديني: تؤدي الكاثوليكية إلى التكامل أكثر من البروتستانتية التي تتميز بالفردانية، ولذلك تقل معدلات الانتحار لدى الكاثوليكين، كما أن الشعور الوهمي لليهود باضطهادهم يجعلهم أكثر ارتباطا بعضهم ببعض.

التكامل الأسري: تقل معدلات الانتحار لدى المتزوجين لأنهم يرتبطون بروابط توحدتهم وتؤلف بينهم أكثر من العزاب.

التكامل السياسي: تقل معدلات الانتحار في حالات الحروب، وذلك أن وحدة المجتمع تكون أكبر منها في حالات السلام.

لمزيد من المعلومات راجع:

إميل دوركايم، الانتحار، ترجمة حسن عودة، دمشق، 2011.

محمد الجوهري وآخرون، تاريخ الفكر الاجتماعي (الرواد)، 2011.

محمد الدين عمر خيرى خمّش، علم الاجتماع: الموضوع والمنهج.

عبد الهادي محمد والي، المدخل إلى علم الاجتماع، 2002-2003.